

## هروب من جعيم الاستغلال والسخرة في ليبيا إلى ظلمات «المتوسط» المهاجرون غير النظاميين... ورقة المتقاتلين في حرب طرابلس

القاهرة، جمال جوهر

طرح البحر أجسادهم على الشاطئ الرملي، فبتعثر جثثهم على جانبي شوارع مدينة الخمس، (120 كيلومتراً شرق طرابلس) حتى تحلل بعضها وتعفن، في واقعة وصفت بأنها «الأكثر مأساوية» للمهاجرين غير النظاميين في ليبيا خلال العام الحالي، لتكشف عن واقع مؤلم يحيط بالآلاف منهم، سواء كانوا داخل أماكن احتجاز رسمية، أو طلقاء. غير أن هذه المخاطر التي تكشفت لـ «الشروق الأوسط» تضاعفت منذ اندلاع الحرب على العاصمة طرابلس قبل ستة أشهر من الآن.

فصل من فصول معاناة هؤلاء المهاجرين بمدن من أطراف الصحراء الليبية المتراصة مع تشاد والنيجر، ومصر والسودان، إلى أن يقع المئات منهم أسرى في قبضة عصابات التهريب والمليشيات المسلحة في طرابلس وغيرها، عبر رحلة دامية، يتخللها التعذيب النفسي والبدني، ولا تخلو من الإبتزاز والاعتداء الجنسي والسخرة.

بعض الجثث، التي لم تُوارى الثرى طوال أيام عدة، وظلت في عراء شوارع الخمس، تبين قبل شهرين تقريبا، أنها تعود لمواطنين من جنسيات أفريقية وآسيوية مختلفة يتعاضدون رغم قسوة سجنائهم داخل عتابر ضيقة مسقوفة بالواح الخشب ورفائق الصباح، يُخلق عليها محليا اسم «كمبوهات»، بينهم نساء وأطفال، مات منهم من مات في معارك دامية بين عصابات التهريب، ونجا منهم من قُدر له أن يعيش، كي يموت ثانية إما بفعل ضربات أمواج البحر المتوسط، أو في الصفوف الخلفية لحرب طرابلس.

ليس هناك فروق كبيرة في حجم المعاناة بين المهاجرين الطلقاء في شوارع العاصمة وبساتين المدن، ومن هم رهن الاعتقال داخل مركز للإيواء غير أن الصيف الأخير زادت مأساه مع اشتعال الحرب المستعرة بين «الجيش الوطني»، بقيادة المشير خليفة حفتر، وقوات حكومة «الوفاق» برئاسة قائد السراج، بعدما سُخر المئات منهم لخدمة المعركة العسكرية، بجانب وقوع معسكراتهم الرسمية في مرمي نيران القوات المدفعية المتبادل، مما أوقع عشرات القتلى والمصابين منهم.

وفي ظل افتقار ليبيا إحصائيات رسمية، قال العقيد المبروك عبد الحفيظ، رئيس جهاز مكافحة الهجرة غير الشرعية، منصف سبتمبر (أيلول) الماضي، إن عدد المهاجرين غير النظاميين الطلقاء داخل البلاد يقدر بـ 700 ألف، بالإضافة إلى سبعة آلاف آخرين محتجزين داخل مراكز الاعتقال بمدن الغرب الليبي.

وقبل قرابة عام أحصى غسان سلامة المبعوث الأممي لدى ليبيا عدد المهاجرين داخل مراكز الاعتقال بـ 34 ألفا، و740 ألف مهاجر في عموم البلاد، وأكد عن تضارب الأرقام تمكنت الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي من تفسير عدد من المهاجرين إلى موطن آخر خلال الأشهر الماضية.

**القتل بطن**  
أوضاع المهاجرين غير النظاميين في هذا البلد الغني بالنفط، والتي يعاني الفوضى منذ إسقاط نظام العقيد القذافي عام 2011، تختلف حاليا عما قبلها. ففي السابق كانت عصابات التهريب والمليشيات المسلحة تتعامل معهم على أنهم سلعة تباع وتشترى... أما الآن فقد أضيف إلى هذا الوضع اللاإنساني بُعد آخر أشد مأساوية، يتمثل في إخراج الأثداء من فزلاء مراكز الإيواء على الخدمة في الحرب، وإغراء الطلقاء منهم بألحاح لاجئين السلاح وتقدم الخطوط الأمامية.

بعض من هذه التفاصيل يرويها مبارك أحمد يوسف، وهو مواطن سوداني جيء به من مدينة زوارة (على شاطئ البحر الأبيض المتوسط غرب البلاد) مع 32 آخرين إلى الضاحية الجنوبية للعاصمة لحوض الحرب على أحد محاور القتال. يقول مبارك (أحاما): «دخلت ليبيا قبل سنتين عن طريق حدود تشاد على أمل الهجرة إلى إيطاليا، وظلت انتقل بين مدن المنطقة الغربية إلى أن وصلت زوارة،

وبدأت أعمل في مهن كثيرة لجمع المال اللازم للسفر، إلى أن اتصل بي شخص سوداني يدعى زكريا، وقال لي: تعال فيه شغل كويس، وفلوس كويس... فبه حرب». وقصة المهاجر السوداني، الذي دخل المعركة تحت إغراء المال، تختلف عن مهاجرين آخرين «أجبروا عليها»، واختارت لهم الميليشيات المسلحة أن يكونوا في الخطوط الخلفية، «خوفا من عدم ولائهم»، وهو ما كشف عنه مسؤول كبير بجهاز الهجرة غير النظامية غرب البلاد، في حديث لبعض الأوساط: «الأسف للمليشيات تعتمد على بعض المهاجرين في الحرب، حيث تجرهم على نقل العتاد الحربي وصناديق الذخيرة إلى محاور القتال المتعددة، ومن يرفض يتعرض للإيذاء الشديد، وربما القتل».

ويستكمل مبارك السوداني، الذي يخضع للتحقيق الآن بمدينة أمن مدينة صبراتة، في مقطع فيديو مصور، بعد ضبطه في إحدى البوابات الأمنية بالذخيرة، «تركتنا زوارة، وذهبت أنا وشخص آخر اسمه أبو بكر، وبعد يومين وصلنا إلى بئر الغنم، بلدة صغيرة تقع جنوب غربي طرابلس العاصمة» وهناك قابلتنا زكريا، وشخصا

وذهب القيادي العسكري إلى أن «سوق الخاصة منصوبة دائماً للمهاجرين، خاصة عمالة رخيصة، وهذه النوعية من المهاجرين تستغلها الميليشيات بعد العملية العسكرية وجدناهم يعملون في نقل وتفريغ المعدات الحربية، وفي ورشات اللحام وصيانة المدرعات، وفي تجهيز الدشم الرملية أمام المقاتلين».

وعقب اندلاع حرب طرابلس، تعرضت مراكز احتجاز المهاجرين، الواقعة في طرابلس، وما حولها، لصفع عشوائي، وهو ما دفع منظمات دولية إلى مطالبة المتحاربين بتجنيد المهاجرين ويلات الـ «الوفاق» تعرض مركز الاحتجاز في مدينة تاجوراء (15 كيلومتراً شرق طرابلس) إلى صف جوي مطلع بوليو (تموز) الماضي، خلف 53 قتيلاً على الأقل، و130 جرحاً. والحقيقة أن قصة المهاجر السوداني مبارك ليست الوحيدة. فقد كشفت الأوضاع في العاصمة عن نماذج كثيرة للمهاجرين ومرترقة أفارقة، ذُبح بهم إلى حرب طرابلس. من بين هؤلاء مواطن تشادي يدعى «البقر»، ضُبع في منطقة السراج (أحد أحياء طرابلس)، واعترف في تسجيل صوتي أنه يعمل مع

### «الجيش الوطني» الميليشيات تدفع بالمهاجرين إلى جبهات القتال مقابل رواتب وتجبر بعضهم على العمل في ورشات اللحام وصيانة المدرعات ومن يرفض يتعرض ربما للقتل

مضيفاً: «بالنسبة لاستخدام المهاجرين في أعمال عسكرية، ففوات حكومة (الوفاق) متورطة في هذا من خلال إجبارهم واستغلالهم في تنظيف الأسلحة وتذخيرها، وتزويد الدبابات بالديزل والقذائف، وهذه الأعمال المجرمة مرصودة بشكل واضح ومثبتة».

أما الاتجاه الثاني الذي يؤكد الفكرة نفسها، فيتمثل في صالح قريسية، المسؤول الإعلامي السابق لفرقة مكافحة «داعش» في صبراتة، الذي قال في حديثه لـ «الشروق الأوسط» إن «المليشيات المسلحة تستغل المهاجرين الآن في تقديم الخدمات اللوجيستية ثقيل أربعة آلاف» (2,564 يورو). بقينا على هذه الحال السبعين، وكان معنا 10 ليبيين، وفي الليل هاجمنا الطيران وضربنا صواريخ، فمات 5 سودانيين، واثنان ليبيان. بعدها حفرنا حفرة كبيرة ودفنوا السودانين، وأخذوا الجثثين، وتركونا ورحلوا».

**جعيم الخطوط الخلفية**  
وأمام قصة الشاب مبارك، حكى مسؤول بجهاز الهجرة في ليبيا جانباً من تعذيب المهاجرين هناك، وقال مشرباً عدم ذكر اسمه لدواع أمنية: «التجارة في المهاجرين تدر أموالاً كبيرة لعصابات التهريب التي تتسلمهم من الحدود، وتدفع بهم إلى تجار آخرين في صبراتة أو الخمس أو الزاوية، والساحل تختلف لمن يدخل منهم طرابلس ويقع في قبضة الميليشيات».

وزاد موضحاً: «في الأشهر

الماضية وجدنا أن مهاجرين كثيرين، رجالاً ونساءً، يتم إخراجهم ليلاً من مراكز الإيواء... الرجال يُعقد عليهم بعنف، وقد يصل الأمر إلى حرقهم بالنار، وتصويرهم وإرسال تلك الصور إلى أسرهم بهدف ابتزازهم للحصول على دولارات. أما النساء فيخضعن لعمليات اعتداء جنسي، قبل أن يتم إعادتهن قبل طلوع النهار إلى مراكز الاعتقال مرة ثانية»، مضيفاً: «عندما دخلت علينا الحرب بدأت الاستعانة ببعض المهاجرين في صناعة المتحاربين على جبهات القتال، ومن يرفض تنفيذ الأوامر فلا يعلم أحد مصدره إلا الله».

شهادته إلى محاور القتال المتعددة، ومن يرفض يتعرض للإيذاء الشديد، وربما القتل».

ويستكمل مبارك السوداني، الذي يخضع للتحقيق الآن بمدينة أمن مدينة صبراتة، في مقطع فيديو مصور، بعد ضبطه في إحدى البوابات الأمنية بالذخيرة، «تركتنا زوارة، وذهبت أنا وشخص آخر اسمه أبو بكر، وبعد يومين وصلنا إلى بئر الغنم، بلدة صغيرة تقع جنوب غربي طرابلس العاصمة» وهناك قابلتنا زكريا، وشخصا

وذهب القيادي العسكري إلى أن «سوق الخاصة منصوبة دائماً للمهاجرين، خاصة عمالة رخيصة، وهذه النوعية من المهاجرين تستغلها الميليشيات بعد العملية العسكرية وجدناهم يعملون في نقل وتفريغ المعدات الحربية، وفي ورشات اللحام وصيانة المدرعات، وفي تجهيز الدشم الرملية أمام المقاتلين».

وعقب اندلاع حرب طرابلس، تعرضت مراكز احتجاز المهاجرين، الواقعة في طرابلس، وما حولها، لصفع عشوائي، وهو ما دفع منظمات دولية إلى مطالبة المتحاربين بتجنيد المهاجرين ويلات الـ «الوفاق» تعرض مركز الاحتجاز في مدينة تاجوراء (15 كيلومتراً شرق طرابلس) إلى صف جوي مطلع بوليو (تموز) الماضي، خلف 53 قتيلاً على الأقل، و130 جرحاً. والحقيقة أن قصة المهاجر السوداني مبارك ليست الوحيدة. فقد كشفت الأوضاع في العاصمة عن نماذج كثيرة للمهاجرين ومرترقة أفارقة، ذُبح بهم إلى حرب طرابلس. من بين هؤلاء مواطن تشادي يدعى «البقر»، ضُبع في منطقة السراج (أحد أحياء طرابلس)، واعترف في تسجيل صوتي أنه يعمل مع

مجموعة من المهاجرين قالت حكومة «الوفاق» إنها ضبطتهم بحاربون مع «الجيش الوطني» (عملية بركان الغضب)



المهاجرون غير شرعيين أنقذتهم القوات البحرية الليبية بداية الشهر الحالي خلال محاولتهم الهرب من ليبيا (أ.ف.ب)

الطوير، المستشار بالأكاديمية العربية الأوروبية، والمهتم بقضايا حقوق الإنسان في بلاده، أنها «ما زالت قائمة»، ويسؤله عن مصير مجموعة المهاجرين الذين تم إخراجهم من مراكز للإيواء بعد إخلائها، عقب قصفها، قال الطوير لـ «الشروق الأوسط»: «لقد نُقلوا إلى مركز آخر لتجميع المهاجرين، يتبع مفوضية الأمم المتحدة السامية لشؤون اللاجئين في طرابلس، بعدما وعدتهم بنقلهم إلى أوروبا».

واستدرج الطوير: «المؤسف أنه لم يرخلوا في حينها... وهو ما دفع بعضهم للهروب من مركز التجميع، بسبب بطء الإجراءات»، التي قال إنها «قد تستغرق أكثر من سنتين».

وعلى عكس ما ذهب إليه «بيت المال»، قال الطوير إن خروج هؤلاء المهاجرين إلى شوارع العاصمة، يمثل خطورة عليهم، وزاد موضحاً: «طبعاً... طرابلس تعيش حالة حرب، وسيتم استغلالهم من طرف عصابات التهريب وتجارة البشر في (ركوب البحر)، وبالتالي لا بد من حمايتهم».

وكان الأسين العام للأمم المتحدة أنطونيو غوتيريش قد قال في آخر تقاريره، إنه قد تقدم

الدعم لإجلاء وإعادة توطين ألف 297 لاجئاً إلى خارج ليبيا، كما غادر 1465 لاجئاً عبر مرفق التجميع والمخادرة في طرابلس.

اتهامات متبادلة

وباتت قضية استغلال المهاجرين غير النظاميين في ليبيا ككرة لهب، يلقي بها كل طرف في وجه الآخر لإبراء ذمته. وأمام اتهام قيادات «الجيش الوطني» للقوات «الوفاق» بتجنيد المهاجرين للحرب جبراً، أو تحت إغراء المال، ردت الأخيرة بأن قيادات الجيش، الذي يقوده حفتر، متورطة باستخدام أفارقة وعناصر من شركة (فاغتر) والخمس، وأُشكت على التخلل والتعفن، وسط درجة حرارة الطقس التي تجاوزت الأربعين، وحينها كتب عبد المنعم الحر، الأمين العام للمنظمة العربية لحقوق الإنسان بليبيا، وابن مدينة الخمس، على حسابة على موقع التواصل الاجتماعي «فيسبوك» قائلاً: «عشرة أيام متتالية للقتال إلى جانب حفتر، وضبطت بحوزتهم مركبات دفع رباعي ومبالغ مالية بالدينار الليبي».

ونشرت وسائل إعلام سودانية أن محكمة مكافحة الإرهاب بالخرطوم، برئاسة معاوية محمد عبد الله، طالبت قائد قوات الدعم السريع



جثث مهاجرين لفظهم البحر (الشروق الأوسط)

قوات أسامة الجولي (أمر المنطقة العسكرية الغربية في حكومة «الوفاق»)، وضبط عدد من أهالي منطقة السراج «البقر» في السيام من سبتمبر الماضي مرتدياً زياً عسكرياً، وعثروا في غرفة يقطنها على سلاح «كلاشنيكوف»، وذخيرة، واعترف أنه هو ومجموعة من الشباب فتحي باشاغا، «بإغلاق مراكز

مهاجرون بسيارات عسكرية

رواية القائد العسكري، ومن تم ضبطهم من المهاجرين الأفارقة، تجدها مجسدة في بعض أحياء العاصمة، وخاصة منطقة الكريمة المحاذية لمنطقة السواحي، وطريق المطار من الجهة الشرقية للعاصمة، معقل قوات حكومة «الوفاق».

فهناك اعتاد المواطنون على رؤية المهاجرين المرتزقة، من أصحاب البشرة الداكنة، وهم يتجولون بالسلاح في الشوارع، وفي هذا السياق يقول الناشط المدني حميد الوافي لـ «الشروق الأوسط»: «أثناء النهار يمارسون حياتهم بشكل طبيعي، فتجدهم يتجولون بسيارات عسكرية في سوق الكريمة لشراء ما يلزمهم

وفي الفترة الممتدة من يناير (كانون الثاني) حتى أغسطس (آب) الماضيين، أوقفت السلطات الأمنية غرب البلاد 8813 مهاجراً في 28 سجناً من السجون الرسمية، التي تشرف عليها وزارة العدل، وضبطت في مرافق تديرها مباشرة الميليشيات، ولم تتج لهؤلاء المحتجزين فرصة للطعن في مشروعية احتجازهم. وبخصوص المخاطر التي تتهدد المهاجرين في شوارع طرابلس، رأى الليبي محمود

الفريق أول محمد حمدان دلقو (حميدتي) لإحضار أحد منسوبيه للمثول أمام المحكمة في قضية المتهمين بتدريب شباب للمشاركة في القتال مع قوات حفتر) بطرابلس. وبموازاة اتهامات «الخصوم» في ليبيا، استغل عبد الهادي الحويج، وزير الخارجية والتعاون الدولي بالحكومة المؤقتة (شرق ليبيا)، افتتاحه مكتبة أطلق عليها اسم السفير الأميركي الراحل «كريستوفر ستيفنز»، بمرکز إيواء قنفودة للهجرة غير الشرعية غرب مدينة بنغازي، وقال إن «المهاجرين في المناطق التي تسيطر حكومتها سيادتها عليها في مامن، وبعيداً عن البيع والشراء، ولا يرحب بهم في الحروب، أو يُرسمون في البحر»، في إشارة إلى أوضاعهم في طرابلس. واعتقلت قوات الدعم السريع السودانية 138 من جنسيات أفريقية مختلفة عند نقطة التقاء الحدود السودانية مع السودان ونشأ، عندما كانوا يحاولون دخول ليبيا بشكل غير شرعي في الخامس والعشرين من سبتمبر الماضي.

### تعفن الجثث

المصر الماسوي الذي يلقاه كثير من المهاجرين في ليبيا، سواء دخل مقر احتجازهم أو خارجها، يدفعهم مجبرين إلى التخطيط مع سمسارة الهجرة (لرحلة الخلاص)، حتى وإن دفعوا حياتهم ثمناً لذلك. فلا هدف آمن لديهم الآن من اللحاق بذويهم الذين سبقوهم إلى أوروبا عبر رحلات تخلتها رائحة الموت. في هذا السياق، تحدث ليونارد دويل، مستشار باسم المنظمة الدولية

واحدة من هذه الرحلات المميتة انتهت على شواطئ ميناء مدينة الخمس (120 كيلومتراً شرق مدينة طرابلس) نهاية يوليو الماضي، قضى فيها قرابة 150 مهاجراً، بعدما ألغى البحر من ركايتها ما انتهى لفظاً ما تلقى إلى الحد الذي دفع الغفوض الأعلى للاجئين في الأمم المتحدة فيليبو غراندي الكتابة على «تويتر»: «أسوأ مأساة في البحر المتوسط هذا العام حصلت للتو... وفي أعقاب ذلك ظلت أمواج «المتوسط» تلتفط جثثاً على مدار ثلاثة أيام، ظلت قرابة عشرة أيام ملقاة على جانبي شوارع بالمدينة، لم تجد مواربها الثرى».

ورغم مضي أكثر من شهرين على هذه المأساة، فإن أجواءها لا تزال حاضرة في أذهاب مواطني الخمس ومعاونين لجمعية الهلال الأحمر الليبي، الذين ساهموا في رفع بعض منها بعد أن طمسها رمال الشاطئ.

بتذكّر صالح قريسية في حديثه لـ «الشروق الأوسط»، هذا الحادث المأساوية، «انتقلنا عشرات الجثث، ولايتحسنا أنها مهاجرين أفارقة نعرف بعضهم... كانوا يعيشون بيننا في مدن مثل صبراتة وزارة وغيرها، لكن يبدو أنهم قُروا الهروب من الجحيم فوقوعوا فريسة لسماسرة الموت».

في تلك الأثناء، تعالت صيحات الاستغاثة والمناشدات الإنسانية، فاجتث المبعثري في الشوارع وأمام المجلس البلدي بالخمس، وأُشكت على التخلل والتعفن، وسط درجة حرارة الطقس التي تجاوزت الأربعين، وحينها كتب عبد المنعم الحر، الأمين العام للمنظمة العربية لحقوق الإنسان بليبيا، وابن مدينة الخمس، على حسابة على موقع التواصل الاجتماعي «فيسبوك» قائلاً: «عشرة أيام متتالية للقتال إلى جانب حفتر، وضبطت بحوزتهم مركبات دفع رباعي ومبالغ مالية بالدينار الليبي».

ونشرت وسائل إعلام سودانية أن محكمة مكافحة الإرهاب بالخرطوم، برئاسة معاوية محمد عبد الله، طالبت قائد قوات الدعم السريع

في إطار جائزة \* إعلامة الهجرة، مثل هذا العمل دعم مركز الإعلام (أوبن ميديا هاب) وبرنامج (يوروميد هجرة أربعة)، بتمويل من الاتحاد الأوروبي، والآراء الواردة لا تعكس بالضرورة الرأي الرسمي للاتحاد الأوروبي.